



المنافقون والمفسدون

(013) سورة الرعد

اللقاء الثالث من تفسير سورة البقرة | شرح الآيات 8-16

2022-12-15

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّيُّ وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا الْأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ أَخْرِجْنَا مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْوَهْمِ إِلَى أَنْوَارِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ، وَمِنْ حَوْلِ الشَّهَوَاتِ إِلَى حَتَاتِ الْقُرْبَاتِ، وَبَعْدُ:
مع اللقاء الثالث من لقاءات سورة البقرة، ومع قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)

(سورة البقرة)

تذكير بما سبق:

كما أسلفنا في مُفْتَتِحِ سورة البقرة، تكلم الله عن الأصناف البشرية الرئيسية، كما يُصنَّفها الإسلام، الصنف الأول هم المؤمنون، وهؤلاء هم المفلحون، وصفهم الله تعالى في خمس آيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَلْتَمِئُونَ لِمَا آخَرَهُ هُمْ يَقِينُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

(سورة البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)

(سورة البقرة)

وصف الله عز وجل المنافقون في اثنتا عشرة آية:

الصف الثالث الآن هو موضع حديثنا (**وَمِنَ النَّاسِ**) الآن سيصف الله تعالى الحالة الثالثة، وهي حالة ليست حالة المؤمنين ولا حالة الكافرين، وإنما هي حالة المنافقين، فالمنافقون يدعون الإيمان بالسنتهم ويضمرون الكفر في قلوبهم، فهم ليسوا مع المؤمنين وإنما هم مع الكافرين، ولكنهم صنف خاص، سيبيِّن الله حاله في اثنتي عشرة آية، لماذا؟! المؤمنون خمس آيات، الكافرون آيتان، المنافقون اثنتا عشرة آية متتالية تفصح المنافقين.

المسلمون الآن هاجروا من مكة إلى المدينة، وسورة البقرة مدنية، نزلت بعد الهجرة، وكانت من أوائل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته، إلا آياتٍ، منها الآية الأخيرة في النزول كانت من سورة البقرة، لكن تنزلت السورة على عدة مرات، فالمسلمون الآن سيواجهون صنف جديد من الناس هم المنافقين، هذا الصنف لم يكن موجوداً في مكة، لماذا؟ لأن النفاق لا يظهر في حالة العسر والشدة للمسلمين، وإنما يظهر في حالة اليسر.

ما الذي كان يدفع إنساناً لأن يظهر أمام المؤمنين إيمانه ويطن كفراً في داخله؟ وإذا ذهب إلى الكافرين قال أنا معكم، لا يوجد شيء يدفعه لذلك، يُعلن كفره صراحةً، ليس هناك ما يُبرر أن يخفي الكفر، لأن المسلمين ضعاف، بل الانتساب إليهم وإعلان الولاء إليهم باللسان سيُعزِّضه للمخاطر، وهو لا يريد الإيمان، لكن لما وصل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وأصبح للمسلمين دولة، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحاكم، وقائد الأمة في المدينة، إذاً الآن كثير من الناس يمكن أن يُعلنوا بلسانهم الإيمان لكن يُطنون الكفر في داخلهم.

المؤمن واضح والكافر واضح لكن المشكلة في الصف الثالث المنافق :

فالآن التحذير منهم واجب في آيات كثيرة لهذا السبب، من الأسباب أيضاً التي تدعو إلى التحذير منهم في آيات كثيرة، أنَّ المؤمن واضح، المؤمن أعلن الإيمان بلسانه وقلبه متعلق بالإيمان والمؤمنين، فهو واضح، يعني مُتَّسق مع ذاته ومع منهج ربه، الأمر واضح، والكافر أعلن انسحابه من الدين ورفضه لمنهج الله عز وجل، فضرره بالنسبة للمسلمين قليل، لأنه واضح أيضاً، يقول أنا لست معكم، فيعلمون أنه عدوُّ لهم فيحذروه، وانتهت المشكلة، لكن مشكلتك في الصف الثالث المنافق، الذي هو كافر في الحقيقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَدْ تَرَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَنَّاهُمْ ۖ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)

(سورة النساء)

لكن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)

(سورة النساء)

دون الكافر، لماذا؟ لأن المنافق غير مُتَّسق مع نفسه، هو يكذب على المؤمنين، قال صلى الله عليه وسلم:

{ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ، دُو الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هُوَ لَاءِ بَوْجُو، وَهُوَ لَاءِ بَوْجُو }

فالمنافق مشكلته الكبيرة، وأهمية التحذير منه، وهذه الآيات المتتالية في التحذير منه، لأنه لما أعلن شيئاً وأبطن شيئاً، ما عُدا نعرف أنه عدوٌّ فنحذره، لذلك قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ إِنْ كَانَتْهُمْ خُشْبَةً مَّسَدَةً إِنْ يَخْسُبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ
فَاتْلُوهُمْ اللَّهُ إِنْ أَنْتُمْ يُوقِنُونَ (4)

(سورة المنافقون)

قد يُخفي لك عداوته، فتظنه صديقاً فُتُفشي له بالأسرار، وتجالسه، ويسمع منك ويهز برأسه، فتظنه مسلماً فتعطيه سرّاً، فإذا المنافق مشكلته أنه لا يُظهر عداوته، ولو أظهرها لكان أمره أيسر بكثير.

النفاق قسمين: أكبر اعتقادي وأصغر عملي:

قبل أن أدخُل في صلب الآيات، حتى يتضح المعنى، النفاق يُنمى الكرام وأبها الكريمت، هو على قسمين اثنين: نفاق أكبر ونفاق أصغر، أكبر وأصغر، أو اعتقادي وعملي، الاعتقادي أكبر، العملي أصغر، كيف أكبر وأصغر؟ الأكبر يُخرج من الملة كافر، الذي ينافق نفاقاً اعتقادياً، أو نفاقاً أكبر فهذا كافر، يُخرجه نفاقه من الملة، ليس مسلماً.

أما المنافق نفاقاً عملياً، أو الذي نفاقه أصغر، أي نفاق عملي، فهذا لا يُخرجه من الملة، لكنه عاصي لله تعالى، ومعصيته تستوجب مسارعةً إلى التوبة، وتركاً لهذه المعصية، لكنه يبقى في دائرة الإسلام والمسلمين، ما الفرق بين الأمرين؟

النفاق الاعتقادي أو النفاق الأكبر: يعني أن يقول الإنسان بلسانه إيماناً وأن يُبطن كراً، أي عقيدته الكفر، لكن يُظهر للناس أن عقيدته الإيمان، يقول أنا مؤمن وهو في الحقيقة كافر، فهذا كافر ونفاقه هذا يُخرجه من الملة.

وأما النفاق الأصغر أو النفاق العملي: فهو أن يقول الإنسان شيئاً وأن يفعل شيئاً، وليس أن يعتقد شيئاً، مثل إنسان يجلس بين الناس ويقول لهم يجب أن نكون صادقين، ويحافظ على الصدق، الصدق مهم جداً، ثم هو يكذب، فهو يقول شيئاً ويفعل شيئاً، فهذا نوعٌ من أنواع النفاق، لكنه ليس النفاق الأكبر المُخرِج من الملة، وهذا يبيته بعض الأحاديث كقوله صلى الله عليه وسلم:

{ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ حَصَلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ حَصَلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ

كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ عَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ. }

(أخرجه البخاري ومسلم)

الكذب من النفاق، فالغادر والكاذب والخائن والفاجر في الخصومة، بخاصم فيفجر، لا أريد أن أكلمه أبداً، يتحدث عنه، يبلغ في وصفه بالعبارات القاسية، يفجر في خصومته، فهذا الذي فيه هذه الخصال، ففيه حصلة من النفاق، قال: (وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ حَصَلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ حَصَلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا).

فإذاً هناك نفاق أكبر اعتقادي، وهناك نفاق أصغر عملي، الأول هو المُخرِج من الملة، وهو يتحدث عنه هذه الآيات الآن، والنفاق العملي جاء به السنة في عدة أحاديث شريفة، الآن نأتي إلى الآيات بعد أن تبين مفهوم النفاق بشكل عام، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْتِزِمُ الْآجِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَإِلَيْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)

(سورة البقرة)

أربع نماذج من الناس في سورة البقرة:

هذه الآيات الثلاثة الأولى في وصف المنافقين، أولاً: (وَمِنَ النَّاسِ) هذا نموذج بشري، القرآن الكريم يتحدث عن نماذج بشرية في القرآن (وَمِنَ النَّاسِ) أنت في ثمان آيات، أربع منها في سورة البقرة، هنا نموذج المنافقين (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْتِزِمُ الْآجِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) بعد قليل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۚ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ
الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165)

(سورة البقرة)

نموذج المشركين، بعدها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204)

(سورة البقرة)

نموذج من المُفسدين في الأرض، وأجر نموذج في سورة البقرة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ (207)

(سورة البقرة)

نموذج من يبيعون أنفسهم لله، في رضا الله عز وجل، فالقرآن يُقَدِّم هذه النماذج، ابتداءً بقوله: **(وَمِنَ النَّاسِ)** فانظر هل أنت من هذا الصنف من الناس؟ هذا الصنف **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ)** إذا بلسانه، **(أَمَّا بِاللَّهِ وَيَالِئِهِمُ الْآخِرُ)** إذا هو يُظهر الإيمان بالله وباليوم الآخر، وهذان الركنان يتكرر ذكرهما متلازمين في كتاب الله تعالى، الإيمان بالله واليوم الآخر، مع أنَّ أركان الإيمان ستة، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، ويؤمن بقضاء الله وقدره هذا كله معاً، لكن يوم الآخر وحده، إذا إنسان ما آمن به على وجه التحديد، فإنه لا يستقيم على أمر الإنسان يقيناً، أنه سيقف بين يدي الله، ويسأله لماذا أكلت هذا المال الحرام؟ فإنه لا يأكله، لأنه يعلم أن الحساب قادم، وأنه لو آمن أنه سيقف بين يدي الله ليسأله، لماذا جرّحت فلان وأسات له؟ وشتتت عرضه وسببته، فإنه لا يفعل، لأن الوقوف بين يدي الله مُحَرَج.

الإيمان بالله واليوم الآخر ركنان أساسيان في الإيمان:

لكن الله تعالى كثيراً في القرآن ما يربط بين الإيمان بالله واليوم الآخر، لأنهما الركنان الأساسيان في الإيمان، ذكرهما يُعني عن ذكر غيرهما، ويشمل كل شيء، أن يؤمن الإنسان بالله، فهو إذا آمن بالله فيؤمن بملائكته وكتبه ورسله، ويؤمن بقضاء الله وقدره هذا كله معاً، لكن يوم الآخر وحده، إذا إنسان ما آمن به على وجه التحديد، فإنه لا يستقيم على أمر الله، وأنه يظلم الناس، لماذا الناس يظلم بعضهم بعضاً؟ لضعف إيمانهم باليوم الآخر، عنده مشكلة إما أنه لا يؤمن باليوم الآخر، أو أنه يؤمن به لكن إيماناً ضعيفاً، أمّا لو أيقن الإنسان يقيناً، أنه سيقف بين يدي الله، ويسأله لماذا أكلت هذا المال الحرام؟ فإنه لا يأكله، لأنه يعلم أن الحساب قادم، وأنه لو آمن أنه سيقف بين يدي الله ليسأله، لماذا جرّحت فلان وأسات له؟ وشتتت عرضه وسببته، فإنه لا يفعل، لأن الوقوف بين يدي الله مُحَرَج.

مثال: إذا إنسان يعلم أن هذا الرجل خلفه وزير، فإنه لا يشتبه، إذا كان يعلم أنه سيذهب للوزير، وسأني الوزير ويستدعيه، ويقف أمام الوزير ويقول له لماذا شتمت مساعدي، فإنه لا يشتبه لأنه يعلم أن هذا مساعد الوزير، وهناك موقف بين يدي الوزير وسيحاسبه، فإذا الإنسان لماذا يتعدّى على الناس؟ لأنه لا يؤمن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر، الذي يمنعه من الإساءة للناس وترك منهج الله تعالى، فدانماً يتلازم هذان الركنان في كتاب الله **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِئِهِمُ الْآخِرُ)** كما تحيون **(وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)** إذا المنافق كافر.

الإنسان عندما يتوهم أنه يخدع الله تعالى أو يخدع الناس فهو في الحقيقة يخدع نفسه:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) الإنسان عندما يتوهم أنه يخدع الله تعالى، أو يخدع الناس فهو في الحقيقة يخدع نفسه، يمكن إنسان أن يخدع كل الناس لبعض الوقت، يعني ممكن إنسان عنده إعلام، وهو رئيس أعظم دولة في العالم، يوهم الناس بأنه هو رجلٌ صالح، شهر وشهرين وثلاثة ثم يفضحه الله، معظم الناس تنغش به، يقول لك هذا يحب الإسلام والمسلمين، جاء لينصر الدين، يلقي محاضرة أو محاضرتين، فيخدع كل الناس لوقتٍ قصير ثم يفضحه الله، ويمكن الإنسان يخدع بعض الناس لوقتٍ طويل، لكن بعض الناس وليس كل الناس لوقتٍ طويل، يعني يستطيع أن يُمَثِّل على عائلته بأنه هو رجلٌ محسن وهو أعمال خير، وهو في الحقيقة يتاجر تجارةً مُحَرَمَةً، ويبقى عشرين أو ثلاثين سنة يظنون أنَّ تجارته حلال، لأنَّ تجارته الحرام مخبأة أو مُسَجَّلة بأسماء آخرين، فهو خدع بعض الناس، لكن ليس كل الناس لوقتٍ طويل، لكن هل يمكن للإنسان أن يخدع ربّه؟! لا مستحيل، كيف يخدع ربه والله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِن تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)

هل إذا قال بلسانه أنا مؤمنٌ فإنه يخدع ربه؟! معاذ الله، فقال: **(يُخَادِعُونَ اللَّهَ)** والمخادعة فيها مُبالغة، ما قال يخدعون، يخدعون فيها مُراوغة يحاول أن يُخدع الله والذين آمنوا، قال: **(وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)** في حقيقة الأمر، لماذا يخدعون أنفسهم؟ لأنه سيدخل النار.

فرصاً كمنال: طالب استطاع أن يخدع الجامعة أنه قدّم امتحان، وجلس وتظاهر بأنه يكتب بالورقة، ثم تنى الورقة وسلمها وخرج، وقال لك خدعت الجامعة، وما كتبت ولا كلمة بورقة الامتحان، نقول له أنت خدعت نفسك، لأنك ستأخذ علامة الصفر، وسترشب ولن تترفع إلى الصف الذي يليه، فأنت خدعت الجامعة أم خدعت نفسك؟! خدعت نفسك، فهذا الكافر الذي يدعي الإيمان ويُبطن الكفر، يظن أنه يخادع الله وهو في الحقيقة يخدع نفسه، لأنه سيوردها النار، لكن **(وَمَا يَشْعُرُونَ)** ما يشعر أنه يخدع نفسه.

النفاق مرض:

(في قلوبهم مَرَضٌ) هذا المرض هو النفاق، هناك مرض الشك، هناك مرض الشرك، هناك مرض الحقد، القلوب فيها أمراض، قال: **(في قلوبهم مَرَضٌ)** وهو النفاق، لأنّ النفاق مرض، والإنسان كريم النفس، عزيز النفس لا ينافق، حتى لو كان كافراً، نسأل الله العافية، فنفسه أعزّ عليه من المنافق، لأنه ما تجرأ أن يكون ذا وجهين، واضح كفر والعباد بالله، مصيبته كبيرة لكن ليس كالمنافق، فالمنافق في قلبه مرض، ولولا أنّ في قلبه مرضاً لما نفاق، قال: **(قَرَأَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)**.

قد يسأل سائل، لماذا يزيدهم الله تعالى مرضاً؟ لأن الله تعالى عندما يهدي الإنسان يزيده هدياً، وبالمقابل عندما يمرض يزيده مرضاً، يسمح لهذا المرض أن ينتشر، ربنا عزّ وجل مالك كل شيء، فلو أراد لمنعه، لكن ربنا عزّ وجل يريد أن يُحقّق الاختيار، فبالتالي ترك لنا الاختيار، فمن يهتدي، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17)

(سورة محمد)

وفي المقابل، الذي يزيغ يُزيغه الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِغُلَامِي وَكَانَ آيَاتِي مِنْ رَبِّي قَالُوا لَنْ نَبْرَأَ كَآيَاتِ الْكُفْرِ الْفَاسِقِينَ (5)

(سورة الصف)

المنافق ينافق فيزيده الله مرضاً:

والمنافق ينافق فيزيده الله مرضاً، يُمرضه أكثر، بمعنى أنّ الله تعالى يأذن له أن يتابع في اختباره، من أجل أن يأخذ جزاءه العادل، يعني مثلاً: شابٌ جاء إلى صيدلاني وقال له أنا خبير وعندي خبرة بمجال الأدوية، أريد أن أعمل عندك، فقال له تفضل، ووضع له مجموعة من الأدوية مع بعضها، أدوية المضادات الحيوية، مع أدوية تخفيف الألم، مع أدوية الكلى، ووضع معها أدوية سامة لا تُعطى إلا بوصفاتٍ طبيّة، وقال له افرز لي الأدوية، ضع كل دواءٍ في مكانه، فأمسك الدواء الذي به مواد سامة، ووضع مع الفيتامينات، هذا خطأ جسيم جداً في الصيدلة، الصيدلاني ما تكلم أبداً وما منعه، لماذا؟ لأنه لو أوقفه وقال له هذا لا يوضع هنا ما يَتحقق الاختبار، ما أنّ الامتحان، بتركه ساعة كاملة، ثم يقول له أنت لا تصلح لأن تكون صيدلانياً، ارتكبت عشرات الأخطاء في الأدوية، هذا معنى: **(في قلوبهم مَرَضٌ قَرَأَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)** يعني ربنا عزّ وجل يترك العباد ليُحقّق كل منهم اختباره، فالمُهتدي يهتدي، والمريض يمرض، حتى ربنا عزّ وجل بعد ذلك، يُكافئ أو يُعاقب بناءً على اختيارك أنت.

(في قلوبهم مَرَضٌ قَرَأَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ والعذاب في القرآن يكون أليماً ويكون عظيمًا ويكون مُهينًا، العذاب العظيم دلالة على أنه ذو حجم كبير جداً، يعني عذاب من العظيم جلّ جلاله، والمُهين يؤلم الإنسان في كرامته تُهينه، والأليم يؤلمه بجسده وبنفسه، فهنا **(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12)

(سورة البقرة)

كيف يُفسد الإنسان في الأرض:

الإفساد: أن يضع الإنسان الشيء في غير موضعه، يعني لو أن عندي ملحاً، والملح مادة مفيدة، ويُنكَّر والشُّكَّر مادة مفيدة، ثم طبخت الأرز وأخطأت ووضعت له الشُّكَّر، ماذا أصنع بالأرز؟ أتلفه، لماذا؟ لأنني أفسدته، لماذا أفسدته؟ لأنني وضعت الشيء في غير موضعه، الشُّكَّر ليس للأرز، وبالمقابل لو أنني صنعت الكنافة ووضعت لها ملحاً فإنني أفسدتها، فعندما أصع الشيء في غير موضعه أفسده.

كيف يُفسد الإنسان في الأرض؟ عندما يُخرج الأشياء عن مهمتها التي خلقها الله لها، المرأة خلقها الله تعالى جدهً تُقَمِّلُ يدها، ولها موضع الصدارة في البيت، أمّاً محترمةً، ترعى أولادها وتقوم على شؤون بيتها، أختاً لها محبة إخوانها، وتكريمهم ورعايتهم لها، وحفظهم وصونهم لها، بنأ لها الحبِّ والموَدَّةَ والقُبلة الصادقة، والتعليم والنصح والإرشاد، هكذا خلق الله تعالى المرأة، لئلا قالوا لها لا تتزوجي أفسدوها، ليس لا تتزوجي بمعنى امرأة لم تتزوج، قد لا تتزوج المرأة وهي في قمة صلاحها، بل أصلح من المتزوجات، لكن أقصد لئلا منعوها من الزواج، وألجؤوها إلى الشارع أفسدوها، لئلا قالوا لها اخرجي متبرجة أفسدوها، لأنهم يضعونها الآن في غير موضعها، لئلا قالوا لها أنتي سكرتيرة، تحملي لمدير العمل حتى تبقى في عملك أفسدوها، لئلا قالوا لها أنت جميلة، قومي بعمل إعلانات تجذب الزبائن، جعلوها إعلان على منتج مُعَيَّنَة، قد تكون أحياناً للأسف الشديد على منتج سيئة، أو منتج مهانة أفسدوها.

هذا إفساد المرأة، وهناك إفساد للرجل، هناك إفساد للزرع للنبات لكل شيء خلقه الله، الله خلق الزرع له أوقات، لئلا يضعون له هرمونات مُسرطنة أفسدوه، فالإفساد يشمل كل شيء في الحياة، الطفل خلقه الله على الفطرة، فلئلا نقول نريد أن نعطيهم تربية جنسية آمنة في المدارس تُفسده، لئلا تتركه للشاشة تُربيه تُفسده، فإذا الإفساد هو أن تُخرج الشيء عن المهمة التي خلق من أجلها.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) يعني هم يدعون الإصلاح وهم يُفسدون، واليوم نسمع كثيراً من دُعاة التحلل والفساد، والبُعد عن الخير والحق وإفساد الأجيال، نسمع منهم أنهم يدعون أنهم هم المصلحون، نحن نُصلح المجتمع، نحن نبني المجتمع، نحن نُعطي المرأة كرامتها، نعطيها حريتها، نعطيها حقوقها، نحن نريد أن نُعطي للطفل الحقوق، من أجل أن لا يضره والداه مثلاً، يعني يأتون بعبارة بَرَّاقَة، تتم على أنهم يدعون الإصلاح، وهم في الحقيقة يُفسدون في الأرض **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)**.

الناس يصدرون في أفعالهم عن قصدٍ إيجابيٍ في زعمهم:

(أَلَا) أداة استفهام تفيد التوكيد، **(إِنَّهُمْ)** تفيد التوكيد، **(هُمْ)** ضمير فصل يفيد التوكيد، ثلاث مؤكدات، **(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ)** يعني ما قال هم الذين يُفسدون، قال: **(هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)** يعني هل عدم شعورهم بأنهم يُفسدون يُعفيهم من المسؤولية؟ هل هو عذر؟ لا، طبعاً ليس عُذراً، يعني لو أن إنساناً قال لك: أنا ما كنت أعلم أن هذا سيُفسد، فلماذا لم تسأل؟ لماذا لم تتعلم؟ لماذا لم تسأل عن منهج الله تعالى؟ فعدم شعورهم بأنهم مفسدون لا يُعفيهم من المسؤولية، لا يوجد إنسان في الأرض يفعل فعلاً ويقول عن نفسه إنه مجرم، أو إنه ضال، أو طالم، أو مُفسد، الناس جميعاً عندما يتحركون في الحياة يبحثون عن ما يريحهم، فيدعون أن أفعالهم فيها إيجابية.

حتى السارق إذا دخلت في العمق وتقول له: نسرق أموال الناس؟! بأنتك ببعض الإيجابيات لفعله، يقول لك: عندي أولاد أريد أن أطمعهم، هذا الذي أسرق منه، في الأصل هو اغتصب مال الفقراء، هكذا كان شعراء الصعاليك في الجاهلية، يسرقون من الأغنياء ويعطون الفقراء، يعني يجد مُبرراً لأفعاله، حتى القاتل المجرم عندما يقتل يقول لك: هو استفزني، أنا كنت في لحظة غضب شديدة، هو لو ما قال لي أنا ما فعلت كذا، هو يستحق، يعني قل من الناس من يُصارع نفسه بأنه في الحقيقة سيء، الناس يصدرون في أفعالهم عن قصدٍ إيجابيٍ في زعمهم، لذلك قال تعالى: **(وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

(سورة البقرة)

أعظم السِّقَّة أن تُعرض عن منهج الله تعالى:

إذا هم يتهمون المسلمين والمؤمنين بالسِّقَّة، وهذا من أعظم السِّقَّة، السِّقَّة في الأصل رقة الثوب، إذا الثوب رقيق يُسَمَّونه ثوب سفيه، ثم انتقلت إلى المعنويات، إذا إنسان لا قيمة له في الحياة، كلمة تأخذه وكلمة تُرجعه كما يقول العوام، يُسَمَّى سفيهاً، رقيق الحال يعني، فقال: **(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ)** هم يظنون أنفسهم، بأنهم لئلا نافقوا وادَّعوا الإيمان، وأبطلوا الكفر، بأنهم أذكىء، لكن في الحقيقة هم السفهاء، لأن أعظم السِّقَّة أن تُعرض عن منهج الله تعالى، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ؕ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)

(سورة البقرة)

فيسفه الإنسان نفسه ويحتقرها، حينما يترك منهج ربه، لأنه بحرهما من الخير، ويؤدي بها إلى النار، فأى سقفة أعظم من هذا السقفة بركم؟! هل من سقفة أعظم من أن يقود الإنسان نفسه إلى نار جهنم؟ إلى غضب الجبار؟ إلى غضب الخالق؟ فقال: **(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ)**.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا لَعُوبُوا أَلْبِنُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِبَّانِهِمْ قَالَوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14)

هذا الآن توصيف لحالة النفاق تماماً، الكذب الخداع (قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ) هؤلاء شياطين الإنس وليس الجن، لأنَّ هناك شياطين الإنس والجن، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۗ
فَدَرَّهُمْ وَمَا يَفْقَهُونَ (112)

فشياطينهم هم المشركون من أمثالهم، الذين يُظهرون كفرهم (وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ) يعني جلسوا وجاهدوا وليس هنالك مؤمنٌ بينهم (قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْرَجُونَ) كئيباً نستَهزئ بالمؤمنين ونُدَّعي أننا معهم لأجل المصالح والمكاسب التي يمكن أن تأتينا منهم (إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْرَجُونَ).
قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) أي يجازيهم على استهزائهم، إذا كادوا كاد لهم الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16)

وإذا مكروا مكر الله بهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرُ الْمَاكِرِينَ (30)

وإذا استهزأوا استهزأ الله بهم، فمعنى استهزاء الله تعالى بهم، أي أنه يرد على استهزائهم، هذا من باب المشاكلة في اللغة العربية (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) أي يرد على استهزائهم بعقوبتهم (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ) هذا كما قلنا قبل قليل: (فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَمٌ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَمًا)، (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ) يعني الله عزَّ وجل لو أراد، المنافق بمجرد أن يعلن نفاقه تأتيه صاعقة من السماء فتميته، انتهى الأمر، لكن الله يمدُّ له، قد يمدُّ له إلى سِتِّينَ سعين سنة وهو يُنَافِقُ، وما أحد يعلم أنه منافق ويطغى (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ) أي في تجاوزهم للحدود، (يَعْمَهُونَ) العمه عدم الرؤية، شدة عدم الرؤية.

أخسر تجارة أن يترك الإنسان هدى ربه ويشترى به ضلالة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أُؤْتِيكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16)

(سورة البقرة)

ما معنى **(اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ)** يعني هؤلاء تركوا الهدى وأخذوا الصلال **(اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ)** الباء دخلت على ماذا؟ على المتروك دائماً، يعني أنا اشتريت السيارة بالمال، فالمال هو الذي تركته والسيارة أخذتها **(اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ)** يعني أخذوا الصلالة ودفعوا الهدى ثمناً، تخيل هذه الصفقة كم هي خاسرة! يعني تخيل إنسان مثلاً، عنده بيت ثمنه مئة ألف وبيعه بالف! ماذا تقول له؟ تخيل إنسان عنده بيت بمليون أخذ بدلاً منه خيمة، قابضه على خيمة، ماذا تقول له؟! **(اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ)** دفع الهدى وأخذ الصلالة، قال: **(فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)** أي تجارة أخسر من أن يترك الإنسان هدى ربه ويشترى به صلاة؟! يعني الصلال البعد عن الحق **(أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)**.

وعند هذا الحد نقف، والحمد لله رب العالمين.